# جزوه ادبیات دوره عباسی – نثر

دکتر حبیب کشاورز

دانشگاه سمنان

الفهرس

تمهيد تاريخي: من نهاية الدولة الأموية إلى قيام الدولة العباسية ..... ٣
أسباب تطوّر الأدب في العصر العباسي ..... ٥
الأوضاع الفكرية والعلمية والأدبية في بداية العصر العباسي..... ٩
أنواع النثر في العصر العباسي..... ١٣
ابن المقفع حياته ونثره ..... ٢٢
نماذج من نثره ..... ٢٢
الجاحظ حياته ونثره..... ٢٥
نماذج من نثره (البخلاء) ..... ٢٥
بديع الزمان الهمذاني حياته ونثره..... ٢٨
نماذج من نثره (المقامة البغدادية) ..... ٢٩
القاضي الفاضل حياته ونثره..... ٣١
نماذج من نثره ..... ٣١
ملامح النثر عند القاضي الفاضل ..... ٣٢
موجز عن النثر العباسي..... ٣٤

## تمهيد تاريخي: من نهاية الدولة الأموية إلى قيام الدولة العباسية

لفهم العصر العباسي فهمًا صحيحًا ، لا بدّ من النظر أولًا إلى الأوضاع التي سبقت ظهوره ، أي إلى السنوات الأخيرة من حكم الدولة الأموية؛ لأن الدولة العباسية لم تنشأ فجأة ، بل كانت نتيجة مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية تراكمت عبر الزمن.

أولًا: الأوضاع في نهاية العصر الأموي

في أواخر العهد الأموي ضعفت الدولة تدريجيًا ، وظهرت عدة مشكلات أثّرت في استقرارها.

من الناحية السياسية ، كثرت الثورات والاضطرابات في كثير من الأقاليم ، مثل العراق وخراسان. كما نشبت صراعات داخل الأسرة الأموية نفسها حول الحكم ، مما أضعف سلطة الخلفاء. ولم تعد الدولة قادرة على السيطرة الكاملة على أطرافها الواسعة.

ومن الناحية الاجتماعية ، اعتمد الأمويون اعتمادًا كبيرًا على العرب ، وفضّلوا العنصر العربي على غيره ، في حين كان عدد كبير من المسلمين من غير العرب ، وخاصة الفرس ، ويُسمَّون «الموالي». وقد شعر هؤلاء بالتمييز وعدم المساواة في بعض الحقوق ، فزاد استياؤهم من الحكم الأموي.

ما من الناحية الاقتصادية ، فقد كثرت الضرائب في بعض المناطق ، وظهرت شكاوى من سوء الإدارة المالية ، مما أدى إلى تذمر الناس ، ولا سيما في الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم في دمشق.

كل هذه العوامل جعلت كثيرًا من الناس يبحثون عن تغيير سياسي ونظام جديد أكثر عدلًا ومساواة.

ثانيًا: قيام الدعوة العباسية

في هذا الجو المضطرب ظهرت الدعوة العباسية. وقد رفع العباسيون شعار «الرضا من آل محمد» ، أي الدعوة إلى حاكم من أسرة النبي ﷺ ، وهذا الشعار جذب كثيرًا من الناس ، لأنه كان يحمل معنى دينيًا وسياسيًا في الوقت نفسه.

انتشرت الدعوة سرًا في مناطق مختلفة ، وخاصة في خراسان ، حيث كان الفرس والموالي يشكلون نسبة كبيرة من السكان. وقد وجد هؤلاء في الدعوة العباسية فرصة لتحقيق المساواة والمشاركة في الحكم.

وقاد أبو مسلم الخراساني الحركة العسكرية ضد الأمويين ، واستطاع العباسيون هزيمتهم سنة ١٣٢هـ ، وبذلك سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.

ثالثًا: الأوضاع السياسية في بداية العصر العباسي

بعد استلام الحكم ، عمل العباسيون على بناء دولة قوية ومنظمة.

فنقلوا عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ، لتكون أقرب إلى العراق وفارس وخراسان. وكان هذا الانتقال مهمًا؛ لأنه قرّب الحكم من الشعوب غير العربية ، وجعل الدولة أكثر تنوعًا.

كما نظم العباسيون الإدارة ، فأنشؤوا الدواوين وطوّروا نظام الوزارة ، واستفادوا من خبرات الفرس في شؤون الحكم والمال. وأصبحت الدولة أكثر مركزية وتنظيمًا من السابق.

وهكذا تحوّلت الخلافة من نظام يعتمد على العصبية القبلية إلى دولة كبيرة ذات مؤسسات إدارية واضحة.

رابعًا: الأوضاع الثقافية والحضارية

تميّز العصر العباسي بانفتاح ثقافي واسع. فقد اختلط العرب بالفرس والروم والهنود وغيرهم ، ونتج عن هذا الاختلاط تبادل كبير في العلوم والمعارف.

واهتم الخلفاء بالعلم ، فأسسوا المدارس والمكتبات ، وشجعوا العلماء. وظهرت حركة ترجمة نشطة ، خاصة في بغداد ، حيث تُرجمت الكتب من اللغات اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية في مجالات الطب والفلسفة والرياضيات والفلك.

وبسبب ذلك أصبحت بغداد مركزًا علميًا مهمًا في العالم الإسلامي ، يقصدها الطلاب والعلماء من مختلف البلدان.

خامسًا: الأوضاع الاقتصادية

شهدت الدولة العباسية في بدايتها ازدهارًا اقتصاديًا واضحًا.

ازدهرت الزراعة في العراق بسبب وفرة المياه والأنهار ، وتحسنت طرق الري. كما نشطت التجارة ، لأن الدولة كانت تقع بين الشرق والغرب ، فكانت القوافل والسفن تنقل البضائع بين الصين والهند من جهة ، والبحر المتوسط وأوروبا من جهة أخرى.

ونتيجة لذلك كبرت المدن ، وكثرت الأسواق ، وظهرت طبقة من التجار وأصحاب الحرف ، وتحسّن مستوى المعيشة عند كثير من الناس.

خلاصة

يمكن القول إن الدولة العباسية قامت بسبب ضعف الدولة الأموية من جهة ، ورغبة الناس في نظام أكثر عدلًا ومساواة من جهة أخرى. ومع قيامها بدأت مرحلة جديدة اتسمت بقوة التنظيم السياسي ، والتنوع الثقافي ، والنشاط الاقتصادي. وفي هذا الإطار العام تشكّلت الحياة الفكرية والحضارية التي ميّزت العصر العباسي.

## أسباب تطوّر الأدب في العصر العباسي

لم يظهر ازدهار الأدب في العصر العباسي فجأة ، بل كان نتيجة عوامل سياسية وثقافية وعلمية واقتصادية متعدّدة.

فهذه الظروف الجديدة هي التي ساعدت على نمو الكتابة واتساع حركة التأليف ، وخاصة في مجال النثر.

ويمكن تلخيص أهم أسباب تطوّر الأدب العباسي فيما يأتي:

أولًا: الاستقرار السياسي وقوة الدولة

في بداية العصر العباسي تمتعت الدولة بفترة من الاستقرار والقوة ، خاصة في عهد المنصور والرشيد والمأمون.

وعندما يسود الأمن وتقلّ الحروب ، يتجه الناس إلى:

العلم

القراءة

الكتابة

التأليف

أما في أوقات الحروب والاضطرابات ، فيضعف النشاط الثقافي.

لذلك ساعد الاستقرار السياسي على ازدهار الحياة الفكرية والأدبية.

ثانيًا: انتقال العاصمة إلى بغداد

كان نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد حدثًا مهمًا جدًا.

فقد أصبحت بغداد:

مركز الحكم

مركز التجارة

مركز العلم

واجتمع فيها العرب والفرس والروم والهنود وغيرهم.

وهذا الاختلاط بين الشعوب أدى إلى تبادل الثقافات والأفكار.

ومع كثرة العلماء والكتّاب في مدينة واحدة ، نشطت الحركة الأدبية بسرعة.

حتى سُمّيت بغداد في ذلك الوقت «مدينة العلم والحضارة».

ثالثًا: نهضة الترجمة

تُعدّ حركة الترجمة من أهم أسباب تطوّر الثقافة العباسية.

فقد تُرجمت كتب كثيرة من:

اليونانية

الفارسية

الهندية

السريانية

وخاصة في الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك.

وقد تأسس «بيت الحكمة» في بغداد ليكون مركزًا للترجمة والبحث العلمي.

وهذه الترجمات أدّت إلى:

هذه الترجمات أدّت إلى:

دخول أفكار جديدة

ظهور مصطلحات علمية

اتساع المعرفة

تطوّر أساليب الكتابة

كما تعلّم الكُتّاب طرقًا جديدة في التفكير والتنظيم والتعبير.

ولذلك أثّرت الترجمة تأثيرًا مباشرًا في اللغة والنثر.

رابعًا: ازدهار العلم والتعليم

اهتم الخلفاء العباسيون بالعلماء ، وقرّبوهم من مجالسهم ، وقدموا لهم الدعم المادي.

فانتشرت:

المدارس

المكتبات

حلقات الدرس

الورّاقون (ناسخو الكتب)

وأصبح طلب العلم أمرًا شائعًا بين الناس.

ومع كثرة القرّاء ، زادت الحاجة إلى الكتب ، فكثر التأليف والكتابة.

وبذلك ازدهر الأدب.

خامسًا: تطوّر الإدارة وكثرة الدواوين

كانت الدولة العباسية دولة كبيرة وواسعة ، وتحتاج إلى إدارة دقيقة.

لذلك أنشأت دواوين كثيرة ، مثل:

ديوان الرسائل

ديوان الخراج

ديوان الجيش

وكل هذه الدواوين تحتاج إلى كتّاب مهرة.

فظهرت طبقة جديدة تُسمّى «الكتّاب» ، وهم موظفون يجيدون اللغة والإنشاء.

وهؤلاء ساهموا في تطوير النثر ، وخاصة النثر الديواني والرسائل الرسمية.

إذن الحاجة الإدارية كانت سببًا مباشرًا لازدهار الكتابة.

سادسًا: الازدهار الاقتصادي

ازدهرت التجارة والزراعة والصناعة في العصر العباسي ، وازدادت الثروة في المجتمع.

وعندما تتحسن الحياة الاقتصادية:

يزداد وقت الفراغ

يكثر الاهتمام بالثقافة

ينتشر شراء الكتب

كما كان الخلفاء والأغنياء يشجعون الأدباء ويمنحونهم المال والجوائز.

وهذا الدعم المادي ساعد الأدباء على التفرغ للتأليف.

سابعًا: التنوع الاجتماعي والثقافي

في العصر العباسي لم يعد المجتمع عربيًا فقط ، بل أصبح متنوعًا.

ففيه:

العرب

الفرس

الأتراك

الروم وغيرهم

وكل أمة لها ثقافتها وعاداتها.

هذا التنوع أغنى الحياة الفكرية ، ووسّع موضوعات الأدب ، فكتب الأدباء عن:

المجتمع

الأخلاق

العادات

أخبار الناس

القصص والحكايات

ولهذا أصبح الأدب أكثر واقعية وتنوعًا.

خلاصة

يمكن القول إن تطوّر الأدب العباسي كان نتيجة اجتماع عوامل كثيرة ، أهمها: الاستقرار السياسي ، وازدهار العلم ، ونهضة الترجمة ، وتطور الإدارة ، والنشاط الاقتصادي ، والتنوع الثقافي. وكل هذه العوامل جعلت اللغة العربية لغة علم وأدب وحضارة ، ومهّدت لظهور نثر قوي ومتنوّع ازدهر في مختلف المجالات.

## الأوضاع الفكرية والعلمية والأدبية في بداية العصر العباسي

بعد قيام الدولة العباسية واستقرار الحكم نسبيًا ، دخل المجتمع الإسلامي مرحلة جديدة من النشاط الفكري والعلمي. فقد ساعد الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي على توجّه الناس إلى طلب العلم والمعرفة ، ولم تعد الحياة مقتصرة على الحروب والتوسّع العسكري كما كان في عصور سابقة ، بل ظهرت اهتمامات ثقافية وعلمية واسعة.

أولًا: الأوضاع الفكرية

تميّزت بداية العصر العباسي بنشاط فكري واضح ، وكثرة النقاش والحوار في قضايا الدين والفلسفة والعقل.

فقد ظهرت مدارس فكرية وكلامية مختلفة ، مثل المعتزلة وغيرهم ، وبدأ العلماء يناقشون مسائل العقيدة والحرية والعدل وصفات الله وغيرها. وكان هذا الجدل يحتاج إلى التفكير العقلي والاستدلال المنطقي ، لذلك أصبح العقل أداة مهمة في البحث.

كما ساعد اختلاط المسلمين بالشعوب الأخرى ، وخاصة الفرس واليونان ، على دخول أفكار جديدة إلى الثقافة الإسلامية ، فاطّلع العلماء على الفلسفة والعلوم القديمة ، وحاولوا فهمها ومناقشتها.

وهكذا أصبح المجتمع العباسي مجتمعًا يميل إلى التفكير والتحليل ، لا إلى الحفظ والرواية فقط.

ثانيًا: الأوضاع العلمية

شهد هذا العصر نهضة علمية كبيرة في مجالات متعددة.

اهتم الخلفاء العباسيون بالعلماء ، وقرّبوهم إلى مجالسهم ، ووفّروا لهم المال والمكانة الاجتماعية. فانتشرت المدارس والمكتبات ، وكثرت حلقات الدرس في المساجد.

ومن أهم مظاهر هذه النهضة حركة الترجمة. فقد تُرجمت كتب كثيرة من اللغات اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية ، خاصة في الطب والهندسة والفلك والرياضيات والفلسفة. وكان «بيت الحكمة» في بغداد مركزًا مهمًا لهذه الحركة.

وبسبب ذلك لم يعد المسلمون يكتفون بنقل العلم فقط ، بل بدأوا التأليف والشرح والإضافة ، فظهر أطباء وفلاسفة ورياضيون وعلماء في مختلف التخصصات.

وهكذا أصبحت اللغة العربية لغة علم ومعرفة ، وليست لغة دين فقط.

ثالثًا: الأوضاع الأدبية عامة

تأثرت الحياة الأدبية بهذه التطورات السياسية والثقافية.

فقد كبرت المدن ، واتسعت طبقة المتعلمين ، وظهر جمهور جديد يحب القراءة والكتابة. كما احتاجت الدولة إلى الكُتّاب في الدواوين والمراسلات والإدارة.

لذلك ازداد الاهتمام باللغة والأسلوب ، وظهر كتّاب محترفون يتقنون التعبير والإنشاء. ولم يعد الأدب مقصورًا على الشعر وحده ، بل أصبح للنثر مكانة كبيرة ومهمة.

بل يمكن القول إن العصر العباسي هو عصر ازدهار النثر أكثر من أي عصر سابق.

رابعًا: ازدهار النثر في بداية العصر العباسي

في العصور السابقة ، وخاصة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، كان الشعر هو الفن الأدبي الأول. أما في العصر العباسي ، فقد تغيّر الوضع ، وبرز النثر بقوة.

ويرجع ذلك إلى أسباب واضحة ، منها:

حاجة الدولة إلى الرسائل والكتابة الإدارية

كثرة العلوم والترجمة والتأليف

انتشار التعليم والقراءة

ظهور طبقة من الكُتّاب والموظفين

فكل هذه الأمور تحتاج إلى النثر أكثر من الشعر.

خامسًا: مجالات النثر في بداية العصر العباسي

ظهر النثر في مجالات متعددة ، أهمها:

١) النثر الديواني (الرسمي)

وهو النثر الذي استُعمل في دواوين الدولة ، مثل:

الرسائل السياسية

الأوامر والعهود

المكاتبات بين الخلفاء والولاة

وكان هذا النوع يهتم بجمال الأسلوب وقوة العبارة ، ويكثر فيه السجع والزخرفة اللفظية.

ومن أشهر الكتّاب:

عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع.

٢) النثر العلمي

وهو نثر الكتب العلمية المترجمة أو المؤلَّفة في الطب والفلسفة والرياضيات وغيرها.

ويمتاز هذا النثر بـ:

الوضوح

الدقة

قلة الزخرفة

الاهتمام بالمصطلحات

لأن الهدف منه هو الفهم والتعليم ، لا التجميل.

٣) النثر الأدبي والاجتماعي

وهو نثر يعالج موضوعات الحياة اليومية والأخلاق والمجتمع.

ومن أمثلته:

القصص

الحكم

الرسائل الإخوانية

الكتب الأدبية

ومن أبرز أعلامه الجاحظ ، الذي كتب في موضوعات كثيرة بأسلوب سهل وطريف ، يجمع بين العلم والمتعة.

سادسًا: خصائص النثر في هذه المرحلة

يمكن تلخيص أهم خصائص النثر العباسي المبكر فيما يلي:

الاهتمام بالأسلوب والبلاغة

استعمال السجع أحيانًا

التأثر بالثقافات الأجنبية

تنوع الموضوعات

الجمع بين الفائدة والمتعة

وبذلك أصبح النثر وسيلة أساسية للتعليم والإدارة والتفكير والتعبير عن الحياة الاجتماعية.

خلاصة

أدّت الظروف السياسية المستقرة ، والانفتاح الثقافي ، والنهضة العلمية ، إلى ظهور حركة فكرية وأدبية نشطة في بداية العصر العباسي. وكان النثر هو الفن الأكثر مناسبة لهذه المرحلة ، لأنه يخدم حاجات الدولة والعلم والمجتمع. لذلك احتل مكانة كبيرة ، وتطوّر بسرعة ، وأصبح أساس الحياة الثقافية في ذلك العصر.

## أنواع النثر في العصر العباسي

روّاده وخصائص كل نوع

كما رأينا سابقًا ، أصبح النثر في العصر العباسي وسيلة أساسية للتعبير عن شؤون الدولة والعلم والمجتمع. ولهذا لم يعد النثر نوعًا واحدًا ، بل ظهر في أشكال متعددة ، بحسب الهدف من الكتابة.

فبعض النثر كان للإدارة والسياسة ، وبعضه للعلم والتعليم ، وبعضه للأدب والتسلية. ولذلك يمكن تقسيم النثر العباسي إلى أنواع رئيسة ، لكل نوع خصائصه وروّاده.

أولًا: النثر الديواني (الرسمي)

تعريفه

هو النثر الذي استُعمل في دواوين الدولة ، أي في الإدارة والحكم ، مثل الرسائل بين الخلفاء والولاة ، والعهود ، والوصايا ، والقرارات الرسمية.

وكان هذا النوع مهمًا جدًا؛ لأن الدولة العباسية كانت واسعة وتحتاج إلى كتابة مستمرة لتنظيم شؤونها.

أشهر روّاده

عبد الحميد الكاتب

ابن المقفّع

سهل بن هارون

ابن العميد (في العصور اللاحقة)

خصائصه

قوة العبارة وفخامتها

الجمل الطويلة أحيانًا

استعمال السجع والمحسّنات البديعية

اختيار ألفاظ رسمية وجزلة

الاهتمام بالتأثير في القارئ

ملاحظات تعليمية

هذا النثر يشبه اليوم «اللغة الرسمية» في الكتب الحكومية أو الرسائل السياسية.

ثانيًا: النثر العلمي

أولًا: النثر الديواني (الرسمي)

تعريفه

هو النثر الذي استُعمل في دواوين الدولة ، أي في الإدارة والحكم ، مثل الرسائل بين الخلفاء والولاة ، والعهود ، والوصايا ، والقرارات الرسمية.

وكان هذا النوع مهمًا جدًا؛ لأن الدولة العباسية كانت واسعة وتحتاج إلى كتابة مستمرة لتنظيم شؤونها.

أشهر روّاده

عبد الحميد الكاتب

ابن المقفّع

سهل بن هارون

ابن العميد (في العصور اللاحقة)

خصائصه

قوة العبارة وفخامتها

الجمل الطويلة أحيانًا

استعمال السجع والمحسّنات البديعية

اختيار ألفاظ رسمية وجزلة

الاهتمام بالتأثير في القارئ

ملاحظات تعليمية

هذا النثر يشبه اليوم «اللغة الرسمية» في الكتب الحكومية أو الرسائل السياسية.

ثانيًا: النثر العلمي

تعريفه

هو النثر الذي كُتبت به الكتب العلمية والفكرية ، سواء كانت مترجمة أو مؤلَّفة ، في مجالات الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق وغيرها.

وقد انتشر بسبب حركة الترجمة والنشاط العلمي في بغداد.

أشهر روّاده

حنين بن إسحاق (في الترجمة والطب)

الكندي

الخوارزمي

الجاحظ في بعض كتبه العلمية

خصائصه

الوضوح والبساطة

الدقة في المعاني

قلة الزخرفة اللفظية

استعمال المصطلحات العلمية

التركيز على الشرح والتفسير

ملاحظات تعليمية

هدف هذا النثر هو الفهم والتعليم ، لذلك يبتعد عن التجميل البلاغي.

ثالثًا: النثر الأدبي

تعريفه

هو النثر الذي يهدف إلى الإمتاع والتثقيف في الوقت نفسه ، ويعالج موضوعات الحياة الاجتماعية والأخلاق والعادات والناس.

وهو أكثر الأنواع قربًا من الأدب والفن.

أشهر روّاده

الجاحظ

ابن قتيبة

التوحيدي (لاحقًا)

خصائصه

أسلوب سهل قريب من القارئ

الجمع بين الفائدة والمتعة

استعمال القصص والأمثال والنوادر

روح النقد والسخرية أحيانًا

تنوع الموضوعات

مثال مشهور

كتاب «البخلاء» للجاحظ ، الذي يصوّر الحياة الاجتماعية بطريقة طريفة.

ملاحظات تعليمية

هذا النوع مناسب للطلاب لأنه ممتع وسهل القراءة.

رابعًا: النثر القصصي

تعريفه

هو النثر الذي يعتمد على الحكاية والسرد ، ويهدف إلى التسلية أو التعليم من خلال قصة.

وقد تأثر هذا الفن بالثقافات الفارسية والهندية.

أشهر نماذجه وروّاده

ابن المقفّع: «كليلة ودمنة»

بديع الزمان الهمذاني: «المقامات»

الحريري (في مرحلة لاحقة)

خصائصه

وجود شخصيات وأحداث

السرد والحوار

التشويق والطرافة

أحيانًا استعمال السجع

الجمع بين الحكمة والمتعة

ملاحظات تعليمية

هذا النوع قريب من «القصة القصيرة» أو «الرواية» في عصرنا.

خامسًا: الرسائل الإخوانية والشخصية

تعريفها

هي رسائل يكتبها الأدباء إلى أصدقائهم أو معارفهم ، في موضوعات شخصية أو اجتماعية ، لا رسمية.

أشهر روّادها

الجاحظ

بن زيدون (لاحقًا)

أبو حيان التوحيدي

خصائصها

لغة سهلة وعفوية

التعبير عن المشاعر والأفكار الشخصية

قصر الحجم غالبًا

قلة التكلف

ملاحظات تعليمية

شبه الرسائل أو المقالات الشخصية في عصرنا.

خلاصة

يتبيّن أن النثر في العصر العباسي لم يكن شكلًا واحدًا ، بل تنوّع بحسب حاجات المجتمع والدولة. فقد خدم السياسة والعلم والأدب والحياة اليومية. ولذلك ازدهر بسرعة ، وظهر كتّاب كبار تركوا أثرًا واضحًا في تاريخ اللغة العربية. ومن خلال دراسة هذه الأنواع يستطيع الطالب أن يفهم تطور النثر وأهميته في الحضارة العباسية.

مدرسة النثر المرسل ومدرسة البديع

عندما ندرس النثر في العصر العباسي ، نلاحظ أن الكُتّاب لم يكتبوا بطريقة واحدة.

فقد اختلفت أساليبهم في اللغة والتعبير.

فبعضهم فضّل السهولة والوضوح ، وبعضهم اهتم بالزخرفة اللفظية والمحسّنات البلاغية.

ولهذا يقسم الدارسون النثر العباسي غالبًا إلى مدرستين رئيسيتين:

مدرسة النثر المرسل

مدرسة البديع (أو النثر المصنوع)

وهذا التقسيم يعتمد على شكل الأسلوب وطريقة التعبير.

أولًا: مدرسة النثر المرسل

تعريفها

النثر المرسل هو النثر السهل الذي يخلو من التكلّف والزخرفة الكثيرة ، ويهتم بالمعنى أكثر من اهتمامه بالمحسنات اللفظية.

وكلمة «مرسل» تعني: منطلق وبسيط وغير مقيّد بالسجع أو الزينة البلاغية.

أسباب ظهوره

ظهر هذا الأسلوب بسبب:

الحاجة إلى التعليم والشرح

حركة الترجمة

الكتابة العلمية والفكرية

الرغبة في إيصال الفكرة بوضوح

فالعلوم تحتاج إلى لغة مباشرة يفهمها القارئ بسرعة.

أهم روّاده

- ابن المقفّع

من أوائل من استخدموا النثر السهل الواضح

من أشهر كتبه: «كليلة ودمنة» ، «الأدب الكبير»

- الجاحظ

أكبر ممثل لهذه المدرسة

كتب في موضوعات علمية واجتماعية بأسلوب بسيط وطريف

من كتبه: «البخلاء» ، «البيان والتبيين» ، «الحيوان»

خصائص النثر المرسل

وضوح اللغة

قصر الجمل نسبيًا

قلة السجع

قلة المحسنات البديعية

التركيز على الفكرة والمعنى

سهولة القراءة والفهم

قربه من لغة الكلام أحيانًا

ثانيًا: مدرسة البديع (النثر المصنوع)

تعريفها

هو النثر الذي يهتم بجمال اللفظ والزخرفة البلاغية ، ويكثر فيه السجع والجناس والطباق والمحسنات البديعية.

وفيه يركّز الكاتب على شكل العبارة وصوتها ، لا على المعنى فقط.

ولذلك يسمى أحيانًا «النثر المصنوع» أي المتكلَّف أو المزخرف.

أسباب ظهوره

ظهر هذا الأسلوب بسبب:

الترف الحضاري في العصر العباسي

رغبة الكُتّاب في إظهار مهارتهم اللغوية

المنافسة بين الكُتّاب في دواوين الدولة

تأثر الأدب بالبلاغة والبديع

فأصبح جمال الأسلوب هدفًا مهمًا.

أهم روّاده

أهم روّاده

- عبد الحميد الكاتب

من أوائل من اهتموا بالأسلوب الفني في الرسائل الرسمية

- ابن العميد

طوّر النثر الفني في الدواوين

- بديع الزمان الهمذاني

في «المقامات» ، حيث يكثر السجع والزخرفة

- الحريري

أشهر من بالغ في هذا الأسلوب في مقاماته

خصائص مدرسة البديع

كثرة السجع

استعمال الجناس والطباق

ألفاظ فخمة وجزلة

جمل طويلة أحيانًا

عناية كبيرة بالموسيقى اللفظية

الاهتمام بالشكل الجمالي للنص

قد يكون أصعب فهمًا من النثر المرسل

مقارنة بين المدرستين

| جانب المقارنة | النثر المرسل | مدرسة البديع |
| --- | --- | --- |
| الهدف | توضيح المعنى | تجميل الأسلوب |
| اللغة | سهلة مباشرة | مزخرفة وفخمة |
| السجع | قليل | كثير |
| الفهم | أسهل | أصعب نسبيًا |

المجالات العلم والأدب الاجتماعي  الرسائل والمقامات

أبرز الأسماء  ابن المقفع ، الجاحظ  عبد الحميد ، الهمذاني ، الحريري

خلاصة

يمكن القول إن النثر العباسي سار في اتجاهين:

اتجاه يهتم بالوضوح والبساطة ، وهو النثر المرسل ،

واتجاه يهتم بالزخرفة والجمال اللفظي ، وهو مدرسة البديع.

وكلا الأسلوبين كان نتيجة طبيعية لتطور المجتمع العباسي؛ فالعلم يحتاج إلى الوضوح ، بينما الحياة الحضارية والكتابة الرسمية تميل إلى الزينة الفنية. ومن خلال هاتين المدرستين نفهم التنوع الكبير الذي ميّز النثر في هذا العصر.

خلاصة

يمكن القول إن النثر العباسي سار في اتجاهين:

اتجاه يهتم بالوضوح والبساطة ، وهو النثر المرسل ،

واتجاه يهتم بالزخرفة والجمال اللفظي ، وهو مدرسة البديع.

وكلا الأسلوبين كان نتيجة طبيعية لتطور المجتمع العباسي؛ فالعلم يحتاج إلى الوضوح ، بينما الحياة الحضارية والكتابة الرسمية تميل إلى الزينة الفنية. ومن خلال هاتين المدرستين نفهم التنوع الكبير الذي ميّز النثر في هذا العصر.

## ابن المقفع حياته ونثره

يُعدّ عبد الله بن المقفّع من أوائل كتّاب النثر في العصر العباسي ، ومن أهم الشخصيات التي أسهمت في تطوير الأسلوب العربي وتبسيطه. وقد كان له أثر كبير في انتقال الثقافة الفارسية والهندية إلى اللغة العربية عن طريق الترجمة والتأليف.

وُلِد ابن المقفّع في بلاد فارس ، وكان اسمه قبل الإسلام «روزبه» ، ثم أسلم وسمّي عبد الله. ونشأ في بيئة فارسية مثقفة ، فتعلّم الفارسية والعربية معًا ، وأتقن اللغتين إتقانًا جيدًا. وقد ساعده ذلك على العمل في الترجمة والكتابة.

اشتغل في شبابه بالكتابة في دواوين الدولة ، فعمل كاتبًا لبعض الولاة ، واكتسب خبرة في الإدارة والسياسة. ولذلك جاءت كتاباته منظّمة وواضحة وتعتمد على العقل والتفكير.

اشتهر ابن المقفّع بترجمة كتاب «كليلة ودمنة» من الفارسية إلى العربية ، وهو كتاب يقوم على القصص والحِكم والأمثال ، ويهدف إلى تعليم الأخلاق والسياسة بأسلوب قصصي ممتع. ولم يكتفِ بالترجمة فقط ، بل أعاد صياغة الكتاب بأسلوب عربي جميل ، فصار من أشهر كتب الأدب العربي.

ومن كتبه أيضًا: «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» ، وفيهما نصائح أخلاقية واجتماعية وسياسية ، تدعو إلى الحكمة وحسن السلوك وتنظيم شؤون الحياة.

ويمتاز أسلوبه بالوضوح والبساطة والبعد عن التكلّف ، لذلك يُعدّ من روّاد مدرسة النثر المرسل. فهو يهتم بالمعنى أكثر من الزخرفة اللفظية ، ويحرص على أن تكون عبارته سهلة الفهم.

توفي ابن المقفّع في البصرة مقتولًا في ظروف سياسية ، وهو ما يدل على اتصاله الوثيق بشؤون الحكم والسياسة في عصره. ومع ذلك بقي أثره واضحًا في تاريخ النثر العربي ، ويُعدّ أحد المؤسسين الحقيقيين لفن الكتابة النثرية.

## نماذج من نثره

قالَ دَبْشَلِيمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفَيْلَسوفِ:

قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَيْنِ ضَرَبْتَهُما لِي ، فِي أَمْرِ مَنْ يَسْعَى بِالوِقاعَةِ بَيْنَ النّاسِ ، وَمَنْ يَطْلُبُ بِالحِيلَةِ ما لا يَنْبَغِي لَهُ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا لِلْمُتَحابَّيْنِ يَدْخُلُ بَيْنَهُما الكَذِبُ وَالسِّعايَةُ ، حَتّى يَقَعَتِ العَداوَةُ بَيْنَهُما.

قالَ بَيْدَبا:

أَيُّهَا المَلِكُ ، إِنَّ المُسارِعَةَ إِلى قَبُولِ قَوْلِ السّاعِي مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ وَلا اخْتِبارٍ ، تُوقِعُ في الهَلَكَةِ ، وَتُفْسِدُ ذاتَ البَيْنِ ، وَرُبَّ كَلِمَةٍ أَفْسَدَتْ بَيْنَ أَخَوَيْنِ ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ.

وَالعاقِلُ لا يَعْجَلُ بِالتَّصْدِيقِ ، حَتّى يَعْلَمَ صِحَّةَ ما يُقالُ لَهُ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ يَحْمِلُهُمُ الحَسَدُ وَالحِرْصُ عَلى الإِفْسادِ ، عَلى أَنْ يَقُولُوا ما لا يَعْلَمُونَ ، وَيَنْقُلُوا ما لا يَصِحُّ.

وَإِنَّما يُعْرَفُ صِدْقُ الإِخْوانِ عِنْدَ الشِّدَّةِ ، وَيَظْهَرُ وُدُّهُمْ عِنْدَ الاخْتِبارِ ، فَمَنْ أَسْرَعَ إِلى الظَّنِّ السَّيِّئِ بِصاحِبِهِ ، خَسِرَ الصَّداقَةَ ، وَنَدِمَ حِينَ لا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ.

قالَ المَلِكُ:

وَكَيْفَ كانَ ذَلِكَ؟

قالَ بَيْدَبا:

زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ بِأَرْضٍ مِنَ الأَراضِي أَسَدٌ عَظيمُ القَدْرِ ، شَديدُ البَأْسِ ، وَكانَ مَعَهُ في مَمْلَكَتِهِ ابْنُ آوى يُقالُ لَهُ دِمْنَةُ ، وَآخَرُ يُقالُ لَهُ كَليلَةُ ، وَكانا أَخَوَيْنِ.

وَكانَ الأَسَدُ قَدِ اتَّخَذَ دِمْنَةَ صاحِبًا وَجَليسًا ، لِما رَأى مِنْ حِذْقِهِ وَحُسْنِ كَلامِهِ ، وَكانَ كَليلَةُ أَقَلَّ مِنْهُ حَظًّا عِنْدَهُ.

فَخَرَجَ ذاتَ يَوْمٍ ثَوْرٌ لِرَجُلٍ مِنَ التُّجّارِ ، وَكانَ التّاجِرُ قَدْ خَلَّفَهُ لِمَرَضٍ أَصابَهُ ، فَتَرَكَ القَوْمُ الثَّوْرَ وَمَضَوْا ، فَبَقِيَ في المَرْعَى ، يَأْكُلُ مِنْ خِصْبِ الأَرْضِ ، حَتّى قَوِيَ جِسْمُهُ ، وَاشْتَدَّ صَوْتُهُ.

فَكانَ إِذا خارَ ، سُمِعَ صَوْتُهُ مِنْ بَعيدٍ ، فَفَزِعَ الأَسَدُ يَوْمًا مِنْ صَوْتِهِ ، وَقالَ:

ما هذَا الصَّوْتُ الَّذي لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهِ قَطُّ؟

فَدَعا أَصْحابَهُ ، وَقالَ:

انْظُرُوا ما هذَا الصَّوْتُ ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَكُونَ عَدُوًّا.

فَذَهَبَ دِمْنَةُ يَتَجَسَّسُ الخَبَرَ ، فَرَأى الثَّوْرَ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ بَهيمَةٌ لا خَطَرَ لَهَا ، فَرَجَعَ إِلى الأَسَدِ.

وَقالَ في نَفْسِهِ:

إِنَّ هذِهِ فُرْصَةٌ لي ، فَلَعَلِّي أَتَقَرَّبُ إِلى المَلِكِ بِسَبَبِ هذَا الثَّوْرِ.

فَلَمّا دَخَلَ عَلَى الأَسَدِ قالَ:

أَيُّهَا المَلِكُ ، لا تَفْزَعْ ، فَلَيْسَ الَّذي سَمِعْتَ إِلّا ثَوْرًا ضَعيفًا ، وَإِنْ شِئْتَ أَصْلَحْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، وَجَعَلْتُهُ مِنْ جُنُودِكَ.

فَسُرَّ الأَسَدُ بِقَوْلِهِ ، وَأَذِنَ لَهُ.

فَذَهَبَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ ، وَقالَ لَهُ:

إِنَّ مَلِكَ السِّباعِ قَدْ أُعْجِبَ بِقُوَّتِكَ ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَتَّخِذَكَ صَديقًا لَهُ ، فَلا تَخَفْ.

فَجاءَ بِهِ إِلَى الأَسَدِ ، فَلَمّا رَآهُ الأَسَدُ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُ وَقُوَّتُهُ ، فَقَرَّبَهُ ، وَجَعَلَهُ مِنْ خاصَّتِهِ.

وَمَضَتِ الأَيّامُ ، وَقَوِيَتِ الصَّداقَةُ بَيْنَ الأَسَدِ وَالثَّوْرِ ، حَتّى صارا لا يَفْتَرِقانِ.

فَلَمّا رَأى دِمْنَةُ ذَلِكَ ، حَسَدَهُ ، وَخافَ أَنْ يَذْهَبَ مَكانُهُ عِنْدَ الأَسَدِ ، فَأَضْمَرَ لَهُ الشَّرَّ ، وَقالَ:

لا يَصْلُحُ لي أَنْ يَكُونَ هذَا الثَّوْرُ أَقْرَبَ إِلَى المَلِكِ مِنّي.

فَبَدَأَ يَسعَى بَيْنَهُما بِالنَّمِيمَةِ وَالكَذِبِ ، حَتّى يُوقِعَ العَداوَةَ بَيْنَهُما.

## الجاحظ حياته ونثره

يُعدّ الجاحظ من أكبر أدباء العصر العباسي ، ومن أشهر كتّاب النثر في تاريخ الأدب العربي كله. وقد كان عالمًا موسوعيًا وأديبًا واسع الثقافة ، جمع بين العلم والأدب والفكر ، وترك عددًا كبيرًا من الكتب التي أثّرت في الأجيال اللاحقة.

اسمه أبو عثمان عمرو بن بحر ، وُلِد في مدينة البصرة في أسرة فقيرة ، لكنه كان محبًا للعلم منذ صغره. فكان يحضر حلقات الدرس في المساجد ، ويقرأ كثيرًا ، ويجالس العلماء والمتكلمين. وقد ساعدته البصرة ، وهي مدينة علم وثقافة ، على تكوين شخصيته العلمية.

لقّب بـ «الجاحظ» بسبب جحوظ عينيه ، وقد اشتهر بهذا اللقب أكثر من اسمه الحقيقي.

اتصل الجاحظ بالخلفاء والوزراء ، وعاش في بغداد فترة من حياته ، مما أتاح له الاطلاع على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي. ولذلك جاءت كتاباته قريبة من واقع الناس ، تصف المجتمع وعاداته ومشكلاته بأسلوب حيّ وطريف.

ألّف الجاحظ كتبًا كثيرة في موضوعات متنوعة ، مثل الأدب واللغة والحيوان والفكر والكلام. ومن أشهر كتبه:

«البخلاء»

«البيان والتبيين»

«الحيوان»

وهو لم يكن يكتب للمتعة فقط ، بل كان يهدف إلى التعليم والتفكير ، لذلك نجد في كتبه علمًا وأدبًا وفكاهة في الوقت نفسه.

ويمتاز أسلوب الجاحظ بالوضوح والسهولة ، والاعتماد على الشرح والأمثلة والقصص. كما يستخدم السخرية والطرافة لجذب القارئ. ولهذا يُعدّ من أبرز روّاد مدرسة النثر المرسل ، لأن لغته طبيعية بعيدة عن التكلّف والزخرفة.

وقد عاش الجاحظ عمرًا طويلًا في القراءة والكتابة ، وتوفي في البصرة ، بعد أن ترك تراثًا أدبيًا كبيرًا جعله من أهم أعلام النثر العربي.

## نماذج من نثره (البخلاء)

قَالَ الْجَاحِظُ:

حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، قَالَ:

نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مَرْوَ ، وَكَانَ يُوصَفُ بِالْبُخْلِ وَشِدَّةِ الْحِرْصِ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ رَحَّبَ بِي وَأَظْهَرَ الْبِشْرَ وَالطَّلَاقَةَ ، وَجَعَلَ يَقُولُ:

«أَهْلًا وَسَهْلًا ، أَنْتَ ضَيْفُنَا مَا أَقَمْتَ ، وَلَن تَرَى مِنَّا إِلَّا خَيْرًا.»

قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا خِلَافُ مَا يُحْكَى عَنْهُ.

فَلَمَّا حَضَرَ وَقْتُ الطَّعَامِ قَالَ لِغُلَامِهِ:

«يَا غُلَامُ ، هَاتِ الْخُبْزَ.»

فَجَاءَ بِخُبْزٍ يَابِسٍ قَدِيمٍ ، كَأَنَّهُ حِجَارَةٌ ، ثُمَّ قَالَ:

«وَهَاتِ الْمِلْحَ.»

فَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمِلْحِ فِي طَرَفِ صَحِيفَةٍ.

فَقَالَ: «كُلْ ، فَإِنَّ الْمِلْحَ يُشَهِّي الطَّعَامَ.»

قَالَ: فَجَعَلْتُ أَكْسِرُ الْخُبْزَ بَعْدَ جُهْدٍ ، وَأَغْمِسُهُ فِي الْمِلْحِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظَرَ الْمُحَاسِبِ ، كَأَنَّهُ يَعُدُّ اللُّقَمَ عَدًّا.

ثُمَّ قَالَ:

«يَا غُلَامُ ، لَا تُكْثِرِ الْمِلْحَ ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الْعَطَشَ.»

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَبْخَلُ بِهِ.

قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يُحَدِّثُنِي ، وَيُطِيلُ الْكَلَامَ ، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَمُدَّ يَدِي إِلَى الْخُبْزِ ، شَغَلَنِي بِسُؤَالٍ أَوْ حِكَايَةٍ ، حَتَّى كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَشْبَعَنِي بِالْكَلَامِ دُونَ الطَّعَامِ.

ثُمَّ قَالَ:

«أَمَا تَرَى أَنَّ قِلَّةَ الْأَكْلِ أَصَحُّ لِلْبَدَنِ ، وَأَدْعَى إِلَى خِفَّةِ الرُّوحِ؟ إِنَّ الْأَطِبَّاءَ يَكْرَهُونَ الشِّبَعَ.»

قَالَ: فَقُلْتُ: صَدَقْتَ.

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مَا قَالَ ذَلِكَ نُصْحًا ، وَلَكِنْ بُخْلًا.

فَلَمَّا رَفَعَ الْمَائِدَةَ ، قَالَ:

«لَوْ أَكَلْنَا شَيْئًا مِنَ اللَّحْمِ لَثَقُلَتْ مَعِدَتُنَا ، وَفَاتَنَا النَّوْمُ وَالذِّكْرُ.»

ثُمَّ قَالَ:

«وَالْخُبْزُ خَيْرُ الطَّعَامِ ، عَلَيْهِ كَانَ يَقْتَصِرُ الصَّالِحُونَ.»

قَالَ: فَعَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ مَا يَحْتَجُّ لِلْبُخْلِ ، وَكَيْفَ جَعَلَهُ حِكْمَةً وَزُهْدًا.

وَقَالَ الْجَاحِظُ:

وَحَدَّثَنِي آخَرُ ، قَالَ:

دَعَانِي رَجُلٌ مِنَ الْبُخَلَاءِ إِلَى طَعَامٍ ، فَقُلْتُ: لَعَلَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُكْرِمَنِي.

فَلَمَّا جَلَسْنَا لِلْأَكْلِ ، جَاءَ بِقِصْعَةٍ فِيهَا طَعَامٌ قَلِيلٌ لَا يَكْفِي وَاحِدًا ، ثُمَّ جَلَسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا.

فَكَانَ كُلَّمَا مَدَدْتُ يَدِي سَبَقَنِي ، وَأَخَذَ أَكْبَرَ اللُّقَمِ ، ثُمَّ يَقُولُ:

«كُلْ كُلْ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَأْكُلْ شَيْئًا.»

قَالَ: فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ قِلَّةِ حَيَائِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ يُصَغِّرُ اللُّقْمَةَ وَيُطِيلُ مَضْغَهَا ، كَيْ يَطُولَ وَقْتُ الْأَكْلِ ، وَلَا يَحْتَاجَ إِلَى زِيَادَةٍ.

وَكَانَ إِذَا رَآنِي أَنْظُرُ إِلَى الْقِصْعَةِ ، قَالَ:

«الْعَجَلَةُ فِي الطَّعَامِ مَذْمُومَةٌ ، وَالْمَضْغُ الْجَيِّدُ أَنْفَعُ لِلْمَعِدَةِ.»

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَعِظُنِي لِيَسْتَبْقِيَ الطَّعَامَ.

فَلَمَّا فَرَغْنَا ، قَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَ الْقَلِيلَ وَجَعَلَ فِيهِ الْبَرَكَةَ.»

قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: بَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَّمَنِي مِنْكَ!

## بديع الزمان الهمذاني حياته ونثره

يُعدّ بديع الزمان الهمذاني من أبرز كتّاب النثر الفني في العصر العباسي ، وهو صاحب فنّ «المقامات» ومبتكره. وقد كان أديبًا ذكيًا سريع البديهة ، اشتهر بقدرته الكبيرة على اللعب بالألفاظ واستعمال اللغة بأسلوب جميل ومزخرف.

اسمه أحمد بن الحسين ، وُلِد في مدينة همذان في بلاد فارس ، ولذلك سُمّي «الهمذاني». نشأ محبًا للعلم والأدب ، فدرس اللغة والبلاغة وحفظ الشعر ، وبرع في الكتابة منذ شبابه.

كان كثير السفر بين المدن ، مثل نيسابور وجرجان وأصبهان ، وكان يتصل بالأمراء والوزراء ، ويعقد المجالس الأدبية ، ويناظر العلماء والأدباء. وقد اشتهر بسرعة الارتجال؛ إذ كان يؤلف النصوص والخطب في وقت قصير ، مما يدل على قوة موهبته اللغوية.

أهم آثاره الأدبية كتاب «المقامات» ، وهو الذي جعله مشهورًا في تاريخ الأدب العربي. وقد ابتكر هذا الفن وفتح الباب لمن جاء بعده ، مثل الحريري.

ويمتاز أسلوبه بكثرة السجع والمحسّنات البديعية ، والاهتمام بجمال العبارة والموسيقى اللفظية ، ولذلك يُعدّ من أبرز ممثلي مدرسة البديع أو النثر المصنوع.

وقد توفي الهمذاني شابًا ، لكنه ترك أثرًا كبيرًا في النثر العربي ، خاصة في فن المقامات.

المقامات: تعريفها وتكوّنها

المقامة نوع من النثر القصصي القصير ، يقوم على حكاية طريفة أو مغامرة بطلٍ ذكيٍّ محتال ، تُروى بأسلوب مسجوع مليء بالمحسنات البلاغية.

وهي تجمع بين:

القصة

واللغة الأدبية المزخرفة

والطرافة والفكاهة

وغالبًا تتكوّن المقامة من العناصر الآتية:

راوٍ يحكي القصة

بطل يقوم بالحيلة أو المغامرة

حدث قصصي قصير

نهاية فيها مفاجأة أو طرافة

أسلوب مسجوع مليء بالبديع

وهدف المقامة ليس التعليم فقط ، بل الإمتاع وإظهار مهارة الكاتب اللغوية.

وتُعدّ مقامات بديع الزمان الهمذاني البداية الحقيقية لهذا الفن ، ثم جاء الحريري فطوّره وزاد في زخرفته اللغوية.

## نماذج من نثره (المقامة البغدادية)

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ:

دَخَلْتُ بَغْدَادَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِي ، وَأَنَا مُقِلٌّ مِنَ الزَّادِ ، مُثْقَلٌ بِالْإِقْتَارِ ، فَجُبْتُ شَوَارِعَهَا جَوْعَانَ ، وَطُفْتُ فِي أَسْوَاقِهَا حَيْرَانَ ، أَتَشَمَّمُ رَوَائِحَ الْقُدُورِ ، وَأَتَتَبَّعُ دُخَانَ التَّنَانِيرِ.

فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ ، إِذْ أَبْصَرْتُ مَجْلِسًا قَدِ احْتَفَلَ أَهْلُهُ ، وَمَائِدَةً قَدِ امْتَدَّ ظِلُّهَا ، وَقَوْمًا قَدْ أَحَاطُوا بِقِصَاعٍ كَأَنَّهَا الْبُدُورُ.

فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاللَّهِ فُرْصَةٌ لَا تُعَوَّضُ.

فَدَنَوْتُ مِنْهُمْ ، وَجَلَسْتُ فِيهِمْ كَأَنِّي مِنْ أَصْحَابِهِمْ ، فَمَدَدْتُ يَدِي مَعَ أَيْدِيهِمْ.

فَبَيْنَا أَنَا آخُذُ لُقْمَةً وَأَزْدَرِدُ أُخْرَى ، إِذْ قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ حَادُّ الطَّرْفِ ، شَدِيدُ اللَّحْظِ ، فَقَالَ:

ـ يَا هَذَا ، مِمَّنْ أَنْتَ؟

فَقُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ.

قَالَ: فَمَا اسْمُكَ؟

قُلْتُ: ابْنُ السَّبِيلِ.

قَالَ: وَمَا صِنَاعَتُكَ؟

قُلْتُ: الْأَكْلُ إِذَا وُجِدَ ، وَالصَّبْرُ إِذَا فُقِدَ.

فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْ جَوَابِي.

فَقَالَ: لَا بُدَّ لَكَ مِنْ حُجَّةٍ ، فَإِنَّ طَعَامَنَا لَا يُبَاحُ إِلَّا بِأَدَبٍ أَوْ خِطَابٍ.

قَالَ: فَأَرْسَلْتُ اللِّسَانَ فِي الْبَيَانِ ، وَأَجَلْتُ الْفِكْرَ فِي الْمَعَانِي ، ثُمَّ أَنْشَدْتُ أَقُولُ:

نَحْنُ بَنُو الدَّهْرِ ضُيُوفُ الْقِرَى

إِنْ وَجَدُوا أَطْعَمُوا وَإِنْ عَدِمُوا صَبَرُوا

لَا نَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا

وَلَكِنَّا إِذَا رَأَيْنَا الْمَائِدَةَ حَضَرْنَا!

قَالَ: فَازْدَادُوا ضَحِكًا وَطَرَبًا ، وَقَالُوا: دَعُوهُ ، فَقَدْ أَضْحَكَنَا.

فَجَلَسْتُ آكُلُ أَكْلَ الْوَارِدِ الْعَطْشَانِ ، وَأَلْتَهِمُ الْتِهَامَ الْجَائِعِ الْحَرَّانِ.

فَلَمَّا شَبِعْتُ وَرَوِيتُ ، نَظَرْتُ فَإِذَا بِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِي يَغْمِزُنِي وَيَبْتَسِمُ.

ثُمَّ قَالَ لِي خَفِيًّا:

ـ يَا عِيسَى ، أَمَا عَرَفْتَنِي؟

فَتَأَمَّلْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَنْدَرِيُّ!

فَقُلْتُ: وَيْحَكَ! أَنْتَ هُنَا؟

فَقَالَ: نَعَمْ ، هَذِهِ صَنْعَتِي ، وَبِهَا مَعَاشِي؛ أَتَلَوَّنُ لِلنَّاسِ تَلَوُّنَ الْحِرْبَاءِ ، وَآخُذُ الدُّنْيَا احْتِيَالًا لَا سُؤَالًا.

ثُمَّ قَامَ ، فَأَخَذَ مَا بَقِيَ مِنَ الطَّعَامِ فِي كُمِّهِ ، وَقَالَ:

ـ الزَّادُ لِلْغَدِ أَحْزَمُ مِنَ الثِّقَةِ بِالْيَوْمِ!

ثُمَّ وَلَّى وَهُوَ يَضْحَكُ ، وَتَرَكَنِي أَعْجَبُ مِنْ حِيلَتِهِ ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْ مَذْهَبِهِ.

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ:

فَمَا لَقِيتُهُ بَعْدُ إِلَّا فِي مِثْلِهَا؛ يَدْخُلُ مَدْخَلَ الْفَقِيرِ ، وَيَخْرُجُ خُرُوجَ الْأَمِيرِ.

## القاضي الفاضل حياته ونثره

يُعدّ القاضي الفاضل من أشهر كتّاب الرسائل الديوانية في التراث العربي ، ومن أبرز أعلام النثر الفني في العصور العباسية المتأخرة. وقد عُرف ببلاغته العالية وأسلوبه المزخرف ، حتى أصبح مثالًا يُحتذى في الكتابة الرسمية.

اسمه عبد الرحيم بن علي اللَّخمي ، وُلِد في عسقلان بفلسطين ، ثم انتقل إلى مصر ، ونشأ فيها وتعلّم علوم اللغة والفقه والكتابة. وكان ذكيًا مجتهدًا ، فتعلّم فنون الإنشاء والبلاغة ، حتى برع في الكتابة منذ شبابه.

عمل في دواوين الدولة كاتبًا ، ثم أصبح رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. وكان مسؤولًا عن كتابة الرسائل الرسمية بين الدولة وغيرها من الملوك والولاة ، وكذلك عن صياغة القرارات السياسية والعسكرية.

ولهذا كانت كتابته ذات أهمية كبيرة؛ لأن رسائله تمثّل صوت الدولة ولسانها الرسمي.

وقد اشتهر القاضي الفاضل بأسلوب قوي وفخم ، يعتمد على السجع والمحسنات البديعية ، ويختار ألفاظًا جزلة وتراكيب دقيقة. وكان يعتني بجمال العبارة عناية كبيرة ، حتى أصبحت رسائله تُقرأ بوصفها نصوصًا أدبية ، لا مجرد وثائق إدارية.

ويمثّل القاضي الفاضل مدرسة النثر المصنوع أو مدرسة البديع في الرسائل الديوانية ، حيث يجتمع المعنى السياسي مع الزخرفة البلاغية.

وقد أثّر أسلوبه في كثير من الكُتّاب بعده ، وأصبح نموذجًا يُدرَّس في كتب البلاغة والإنشاء ، مما يدل على مكانته الكبيرة في تاريخ النثر العربي.

## نماذج من نثره

الحمدُ للّهِ الَّذي أَعَزَّ الدِّينَ بِنَصْرِهِ ، وَأَظْهَرَ الحقَّ بِنُورِهِ ، وَكَتَبَ الغَلَبَةَ لِجُنْدِهِ وَحِزْبِهِ ، وَجَعَلَ العاقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ مِنْ عِبادِهِ.

وَالصَّلاةُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ ، الَّذي أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشيرًا وَنَذيرًا ، وَداعِيًا إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجًا مُنيرًا.

أمّا بعدُ ،

فَإِنَّ الكُتُبَ إِذا وَرَدَتْ بِالبِشارَةِ ، جَلَتِ الأَحْزانَ عَنِ القُلُوبِ ، وَإِذا حَمَلَتْ أَخْبارَ النَّصْرِ ، أَحْيَتِ النُّفُوسَ بَعْدَ الكُرُوبِ. وَهذِهِ كِتابٌ يَتَقَدَّمُهُ الفَتْحُ ، وَيَصْحَبُهُ الفَرَحُ ، وَيَتْلُوهُ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ.

وَذلِكَ أَنَّ اللّهَ تَعالى لَمّا عَلِمَ صِدْقَ النِّيّاتِ ، وَطَهارَةَ المَقاصِدِ ، وَقُوَّةَ العَزائِمِ ، أَمَدَّ جُنْدَ الإِسْلامِ بِمَدَدٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَلْبَسَهُمْ لِباسَ النَّصْرِ مِنْ فَضْلِهِ ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَفَضْلٍ ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَرَجَعُوا وَقُلُوبُ أَعْدائِهِمْ مَلْأى رُعْبًا وَذُعْرًا.

فَلَمّا الْتَقَى الجَمْعانِ ، وَتَدانَى الصَّفّانِ ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْواتُ بِالتَّكْبِيرِ ، وَاصْطَكَتِ الأَسِنَّةُ عَلَى الدُّرُوعِ ، وَسالَتِ السُّيُوفُ فِي الهامِ كَسَيْلِ الغُيُوثِ ، أَثْبَتَ اللّهُ أَقْدامَ أَوْلِيائِهِ ، وَزَلْزَلَ أَقْدامَ أَعْدائِهِ.

فَرَأَيْتَ الجُنْدَ كَأَنَّهُمُ البُنْيانُ المَرْصُوصُ ، لَا يَتَزَحْزَحُونَ عَنْ مَوَاضِعِهِم ، وَلَا يَنْكُصُونَ عَنْ مَوَاطِنِهِم ، بَلْ يَتَقَدَّمُونَ تَقَدُّمَ السَّيْلِ ، وَيَصْدُقُونَ صِدْقَ العَزْمِ وَالعَمَلِ.

حَتّى إِذا اسْتَيْأَسَ العَدُوُّ مِنَ الثَّبَاتِ ، وَأَيْقَنَ بِسُوءِ المَآبِ ، وَلّى مُدْبِرًا ، وَتَفَرَّقَ مُتَحَيِّرًا ، يَلْتَمِسُ النَّجَاةَ وَلَا نَجَاةَ ، وَيَطْلُبُ المَهْرَبَ وَلَا مَهْرَبَ.

فَتَبِعَتْهُمُ السُّيُوفُ تَتْلُوهُم ، وَالرِّماحُ تَطْوِيهِم ، حَتّى تَسَاقَطُوا تَسَاقُطَ الوَرَقِ فِي يَوْمٍ العاصِفِ ، وَصَارُوا بَيْنَ قَتِيلٍ أَوْ أَسِيرٍ.

وَرُفِعَتْ رَايَاتُ الإِسْلَامِ عَالِيَةً ، وَخُفِضَتْ رَايَاتُ الكُفْرِ خَاوِيَةً ، وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ البِلادَ دُخُولَ الفاتِحِينَ ، لَا دُخُولَ المُفْسِدِينَ؛ يَعْمُرُونَ وَلَا يُخَرِّبُونَ ، وَيُؤَمِّنُونَ وَلَا يُخِيفُونَ.

وَقَدْ كُتِبَتْ هذه البِشارَةُ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وَأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذا قامَتْ عَلَى العَدْلِ وَالإِخْلاصِ دَامَ ظِلُّهَا ، وَاتَّسَعَ فَضْلُهَا.

فَاشْكُرُوا اللّٰهَ عَلى نِعَمِه ، وَاسْأَلُوهُ تَمامَهَا ، وَادْعُوا لِلسُّلْطانِ الَّذي جَعَلَهُ اللّٰهُ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِهِ ، وَحِصْنًا مِنْ حُصُونِهِ ، يُذَبُّ بِهِ عَنِ الحَوْزَةِ ، وَيُصَانُ بِهِ البَيْضَةُ.

وَالسَّلامُ يَخْتِمُ الكِتابَ كَما فُتِحَ بِالحَمْدِ ، وَاللّٰهُ المُوَفِّقُ إِلَى سَبِيلِ الرَّشادِ.

## ملامح النثر عند القاضي الفاضل

يُمثّل القاضي الفاضل مرحلة متقدمة من النثر العباسي ، حيث أصبح النثر فنًّا بلاغيًّا مقصودًا لذاته ، لا مجرد وسيلة لنقل المعنى. وقد ارتبط أسلوبه بالكتابة الديوانية والرسمية في دواوين الدولة الأيوبية ، لذلك جاء فخمًا ومزخرفًا ومناسبًا لمقام السلطة والسياسة.

ومن أهم خصائص نثره:

١- كثرة السجع

يعتمد على السجع اعتمادًا واضحًا ، فتتوافق أواخر الجمل في الصوت.

مثل:

نصره / نوره

بشيرًا / نذيرًا

يعمرون / يخربون

وهذا يعطي الكلام موسيقى لفظية وقوة إيقاع.

٢- العناية بجمال العبارة

لا يكتفي بإيصال الفكرة ، بل يهتم بتزيينها بالألفاظ الجميلة والتراكيب المحكمة ، فيختار الكلمات بعناية شديدة.

فالغاية ليست الإخبار فقط ، بل الإمتاع والتأثير.

٣- استعمال المحسنات البديعية

يكثر في كلامه:

الطباق (النصر/الهزيمة — الحياة/الموت)

المقابلة

الجناس

التكرار الفني

وذلك لإبراز المعنى وتقويته.

٤- الألفاظ الجزلة الرسمية

يستخدم ألفاظًا قوية فخمة تناسب الرسائل السياسية والعسكرية ، مثل:

الجند ، الرايات ، الظفر ، الدولة ، السلطان ، الفتح ، النصر

وهذا يعكس طبيعة عمله في دواوين الحكم.

٥- طول الجمل وتركيبها

جمله غالبًا طويلة ، فيها تراكيب معقدة وروابط كثيرة ، مما يجعل الفهم أبطأ من النثر البسيط

٦- ارتباط النثر بالسلطة

نثره ليس أدبًا للتسلية ، بل:

رسائل سياسية

مراسلات رسمية

بيانات نصر

أوامر الدولة

لذلك يحمل طابعًا رسميًا احتفاليًا.

## موجز عن النثر العباسي

يُعَدُّ العصرُ العباسيُّ العصرَ الذهبيَّ للنثر العربي؛ ففيه بلغ النثر درجةً عاليةً من النضج والتنوّع ، واتّسعت موضوعاته وأساليبه ، بعد أن كان في العصور السابقة محدودًا في مجالات الخطابة والرسائل البسيطة.

وقد ساعدت ظروف الدولة العباسية السياسية والثقافية على هذا التطوّر؛ فاستقرار الحكم ، واتساع الدولة ، وازدهار العلم ، ونهضة الترجمة ، وكثرة الدواوين الإدارية ، كلّ ذلك جعل النثر وسيلة أساسية في الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية. فأصبح أداةً للعلم والتعليم ، وأداةً للإدارة والحكم ، وكذلك أداةً للأدب والفكاهة والتسلية.

وقد تنوّعت أنواع النثر في هذا العصر ، فظهر:

النثر العلمي والفكري مثل كتب العلم والفلسفة واللغة

النثر الأدبي القصصي مثل الحكايات والمقامات

النثر الديواني مثل الرسائل السياسية والإدارية

النثر الاجتماعي الذي يصوّر حياة الناس وعاداتهم

كما تعدّدت أساليبه ، وانقسم إلى مدرستين واضحتين:

١- النثر المرسل

وهو الأسلوب السهل الواضح ، الذي يهدف إلى إيصال المعنى دون تكلّف في الزخرفة اللفظية. يمتاز بقِصر الجمل ، وبساطة الألفاظ ، وقلة السجع والمحسنات.

ومن أبرز روّاده:

ابن المقفّع

الجاحظ

وقد استُخدم هذا الأسلوب في الكتب التعليمية والفكرية والقصص الاجتماعية ، لأنه أقرب إلى الفهم وأيسر على القارئ.

٢- النثر المصنوع (مدرسة البديع)

وهو الأسلوب الفني المزخرف الذي يهتم بجمال العبارة والموسيقى اللفظية ، ويكثر فيه السجع والمحسنات البديعية ، ويعتمد على اختيار الألفاظ القوية والتراكيب الدقيقة.

ومن أبرز روّاده:

بديع الزمان الهمذاني في المقامات

القاضي الفاضل في الرسائل الديوانية

ثم الحريري من بعدهم

وقد استُخدم هذا الأسلوب في المقامات والرسائل الرسمية وكتابة الدواوين ، حيث كان الهدف إظهار البلاغة والفصاحة إلى جانب المعنى.

وهكذا يمكن القول إن النثر العباسي جمع بين الوضوح والجمال ، وبين الفكرة والصياغة ، وبين التعليم والإمتاع. لذلك ترك تراثًا غنيًّا ومتنوعًا ، وأصبح الأساس الذي قامت عليه فنون النثر العربي في العصور اللاحقة.